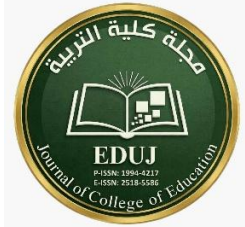


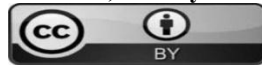


ISSN: 1994-4217 (Print) 2518-5586(online)

Journal of College of Education

Available online at: <https://eduj.uowasit.edu.iq>Ass.Lect Qasim Katouf
RahijWasit Directorate of
Education

Email:

Qasmalqryshy7@gmail.com**Keywords:**Analysis, Pragmatics,
Rhetoric, Poetry**Article info****Article history:**

Received 28. Nov.2025

Accepted 24. Dec.2025

Published 25. May.2026

**Pragmatic Analysis of Rhetorical Questions in Arabic Poetry (Using the Poems of Abu Faras al-Hamdani as a Case Study)****A B S T R A C T**

Pragmatic analysis of Abu Faras al-Hamdani's poetry explores the idea that rhetorical questions in his work are not merely a means of seeking information, but rather a complex rhetorical device reflecting his psychological state and life circumstances. While traditional rhetorical analysis focuses on the figurative purposes of rhetorical questions (such as negation or affirmation), pragmatic analysis emphasizes the performative power inherent in the question, that is, the underlying meaning the poet aims to convey. One of the most prominent functions of rhetorical questions in his poetry is boasting and asserting self-worth: the poet uses rhetorical questions as an argumentative tool to establish his status and identity in relation to others. A prime example is his question in the poem "Do You Remain Unmoved by Tears?": "Is there anyone like me, in my predicament, who is disregarded?" Here, the poet is not seeking an answer, but rather asserting that his fame and status are undeniable, even if his beloved pretends not to recognize him. Complaint and Regret: During his captivity in the Byzantine Empire, his questions became a mirror reflecting his inner turmoil and anguish. In the poem "The Dove," his question, "O my neighbor, do you feel my plight?" was not directed at the dove to seek information, but rather to express his feelings of isolation and pain. Similarly, his rhetorical question, "Can a captive laugh while a free bird cries?" highlights the poignant paradox between his situation and that of the free bird. Expressing Deep Psychological States: Beyond being merely a linguistic construct, the question becomes a tool for expressing complex inner emotions, such as confusion, despair, and denial. For example, in his elegy for his mother, his question, "To whom can I complain? To whom can I turn for solace?" serves as a means of expressing the poet's despair at the lack of any source of comfort. A statistical study revealed that the interrogative particles "hamza" and "hal" were the most frequently used in his poetry, which supports the idea that his questions were often used for emphasis or to express a particular emotional state, rather than to request new information.

© 2026 EDUJ, College of Education for Human Science, Wasit University

DOI: <https://doi.org/10.31185/eduj.Vol63.Iss2.4882>

التحليل التداولي لأسلوب الاستفهام في الشعر العربي (أشعار أبي فراس الحمداني أنموذجاً)

م.م. قاسم كطوف رهيح

مديرة تربية واسط

الملخص:

يواجه التحليل التداولي لشعر أبي فراس الحمداني فكرة أن الاستفهام فيه ليس مجرد وسيلة لطلب معلومة، بل هو أداة خطابية معقدة تعكس أبعاده النفسية وظروفه الحياتية. فبينما يكتفي التحليل البلاغي التقليدي بوصف الأغراض المجازية للاستفهام (كالنفي أو التقرير)، يركز التحليل التداولي على القوة الإنجازية الكامنة خلف السؤال، أي المعنى غير المعلن الذي يهدف الشاعر إلى تحقيقه. وأبرز وظائف الاستفهام في شعره الفخر وتأكيد الذات: استخدم الشاعر الاستفهام كأداة حجاجية لإثبات مكانته وهويته في مواجهة الآخرين. ومن أبرز الأمثلة على ذلك سؤاله في قصيدة "أراك عصي الدمع": "وهل بفتى مثلي على حاله نكر؟". هنا، لا يسعى الشاعر لطلب إجابة، بل يؤكد أن شهرته ومكانته لا يمكن إنكارهما، حتى وإن كانت محبوبته تتظاهر بعدم معرفته. الشكوى والحسرة: خلال فترة أسره في بلاد الروم، تحولت أسئلته إلى مرآة تعكس صراعه الداخلي وحسرتة. ففي قصيدة "الحمامة"، لم يكن سؤاله "أيا جارتا هل تشعرين بحالي؟" موجهاً لطلب معلومة من الحمامة، بل كان للتعبير عن شعوره بالعزلة والألم. كما أن سؤاله الاستنكاري "أضحك مأسور وتبكي طليقة؟" يبرز المفارقة المؤلمة بين حالته وحال الحمامة الحرة. التعبير عن حالات نفسية عميقة: بعيداً عن كونه مجرد استفهام لغوي، أصبح السؤال أداة لبث المشاعر الداخلية المتداخلة، مثل الحيرة، واليأس، والإنكار. على سبيل المثال، في رثائه لأمه، كان سؤاله "إلى من أشتكى؟ ولمن أناجي؟" مجرد وسيلة للتعبير عن يأس الشاعر من وجود نصير. وقد أظهرت دراسة إحصائية أن الهمزة و"هل" كانتا أكثر أدوات الاستفهام استخداماً في شعره، وهو ما يدعم فكرة أن أسئلته كانت غالباً لغرض التقرير أو التعبير عن حالة نفسية، وليس لطلب معلومات جديدة.

الكلمات المفتاحية: التحليل، التداول، الاستفهام، الشعر.

المقدمة:

يهدف هذا البحث إلى تقديم قراءة معاصرة للتراث البلاغي، من خلال استثمار بعض الآليات التداولية الحديثة. وربط العلاقة بين الظواهر التي تميز المتن البلاغي وتلك التي تخص الفكر التداولي المعاصر. ويأتي ضمن الاتجاهات التي تهتم بإعادة قراءة التراث البلاغي العربي في ضوء التطورات الحديثة، التي تعتمد بشكل متزايد على شرح النصوص التراثية في اللغة العربية بشكل عام، وفي البلاغة بشكل خاص. هذه القراءة تقضي إلى إظهار أن نظريات متعددة قد تكون قادرة على تفسير نفس الظواهر اللغوية، مع تأكيد أن هذه النظريات قد تتوازي في مناهج التحليل وطرق التعليل.

ركزت هذه الدراسة على توضيح أوجه التلاقي بين التراث البلاغي ونظرية الأفعال الكلامية، من خلال تحليل مبحث الاستفهام والأغراض المتنوعة التي يهدف إليها. يعتبر مبحث الاستفهام من أبرز المواضيع الفلسفية والتداولية المعاصرة، حيث يتبنى الفيلسوف والبلاغي ميشال مايبير فلسفة تقوم على أساس السؤال، مُعتبراً أن الكلام في جوهره يتخذ شكل الإجابات. وفقاً لمايبير، فإن المتكلم يُعدّ سائلاً في كل حالاته ليس لأنه يطرح أسئلة فحسب، بل لأنه في كلامه يسعى للإجابة على الأسئلة التي تثيره وتحفزه. وبالتالي، يصبح السؤال، بل وفرض السؤال نفسه، هو المحرك الرئيسي والدافع الأساسي للمتكلم في جميع أنشطته (محمود، ١٩٩٧: ٦)، عندما يخبر المتكلم، فهو في الواقع يجيب المخاطب عن سؤال سواء كان صريحاً أو ضمناً، لأن كل إخبار يمكن أن يُعتبر جواباً على سؤال من سائل. من هنا، يُعدّ السؤال أساساً

للنشاط اللغوي وسبب وجوده، فبدونه لم تكن اللغة لتتشكل، ولا كان للكلام أن يوجد. وبالتالي، يمثل الاستفهام العمل الأول للإنسان في أول تفاعل له مع الكون.

كما يُسهم هذا البحث في تعميق فهمنا لنصوص وقضايا فكرية لا تزال راهنة، وباستفادتنا من الدرس التداولي ننطلق من الاعتقاد بأن من يحصل علوماً جديدة ويقف على حقائق مختلفة ويحتك بذوات مغايرة، إنّما يبدل من نظرتة إلى نفسه، فيعود إلى تراثه ليقرأه من حيث لم يقرأ وليفهمه على نحو جديد، فيغنيه ويعمقه.

أبو فراس الحمداني:

أَبُو فِرَاسِ الْخَارِثِيُّ بْنُ سَعِيدِ بْنِ حَمْدَانَ الْحَمْدَانِي التَّغْلِبِيُّ الرَّبِيعِي (٣٢٠ هـ - ٣٥٧ هـ / ٩٣٢ م - ٩٦٨ م)؛ هو شاعر وقائد عسكري عربي حمداني، وهو ابن عم سيف الدولة الحمداني أمير الدولة الحمدانية التي شملت أجزاء من شمالي سوريا والعراق وكانت عاصمتها حلب في القرن العاشر للميلاد. عاصر المتنبّي وأُسِرَ في إحدى المعارك مع الروم.

حياته:

ظهر الحمدانيون في فترة ضعف العنصر العربي داخل الخلافة العباسية، في وقتٍ تراجعت فيه قوة الفرس والترك. فبدأ الحمدانيون في خوض الحروب من أجل دعم حكمهم وتعزيز سلطتهم، حيث سيطر عبد الله، والد سيف الدولة الحمداني وعمّ أبي فراس، على بلاد الموصل وبسط نفوذ بني حمدان على شمال سوريا، بما في ذلك مدينة حلب التي كانت عاصمة الشمال. وقد أسس سيف الدولة في حلب دولة قوية، فاخترها عاصمة له، وأقام فيها بلاطاً ضمّ الكتاب والشعراء واللغويين. نشأ أبو فراس في ظل ابن عمه سيف الدولة بعد وفاة والده المبكرة، فترعرع هناك ليصبح فارساً وشاعراً، وشارك في الدفاع عن إمارة ابن عمه ضد هجمات الروم، حيث كان يقاتل الدمستق قائدهم. وفي أوقات السلم، كان يشارك في مجالس الأدب، يناقش الشعراء وينافسهم. ثم قام سيف الدولة بتعيينه حاكماً على مقاطعة منبج، فتميز في حكمها ونجح في الدفاع عنها.

تعريف الاستفهام:

الاستفهام هو طلب الفهم وتشق كلمة استفهام من الفعل الثلاثي فهم م: معرفتك الشيء بالقلب فهمه فهما وفهامة: علمه الأخيرة عن قلته وفهمت فلانا وأفهمته وتفهم الكلام فهمه شيء بعد شيء (عيسى، د/ت: ٢).

والاستفهام هو نوع من الجمل الإنشائية الطلبية التي تهدف إلى طلب المعرفة عن أمر كان غير معلوم مسبقاً. وهو مشتق من مادة "فهم"، وقد عرفه ابن منظور بقوله: "الفهم هو معرفتك الشيء بالقلب، وإذا فهمت الشيء، فقد عقلته وعرفته. كما يقال: فهمت فلاناً وأفهمته، وتفهم الكلام يعني فهمه شيئاً فشيئاً، واستفهمه يعني سؤاله ليفهمه. وعندما استفهمني شيء، أفهمته، أي جعلته يفهمه تفسيراً واضحاً." (ابن منظور، ١٩٩٧: مادة (فهم)).

وقال ابن قتيبة: " واستفهمته: سألته الإفهام " (ابن قتيبة، ١٩٦٣: ٣٦٠) فالاستفهام في أصل اللغة هو: طلب الفهم وكذا هو في اصطلاح النحويين " طلب الفهم " أيضاً، لكنه عند السيوطي (ت ٩١١ هـ): " طلب الإفهام " (جلال الدين، ١٩٧٩: ٢٩٤) وهناك من سوى بين الاستفهام والاستفهام، كابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) الذي يقول: "الاستفهام: طلب خبر ما ليس عند المستخبر، وهو الاستفهام" ثم يقول: " وذكر ناس أن بين الاستفهام والاستفهام أدنى فرق قالوا: وذلك أن أولى الحالين الاستفهام، لأنك تستخبر فتجاب بشيء، فربما فهمته، وربما لم تفهمه فإذا سألت ثانية، فأنت مستفهم، تقول: أفهمني ما

قلته لي قالوا: والدليل على ذلك أن البارئ - جل ثناؤه - يوصف بالخبر ((الخبر): بضم الخاء: وهو العلم بالشيء) ولا يوصف بالفهم" (ابن فارس، ١٩٦٤: ١٨١).

يقول أبو القاسم عمر بن ثابت الثماني (ت ٤٤٢ هـ): "إنَّ الاستعلام والاستخبار والاستفهام يُستخدم عندما يصدر من شخص لا يعلم، أما إذا صدر من شخص يعلم بما يسأل عنه، فيقال: تقرير وتوبيخ وتبكيث. وكل ما جاء في القرآن من الاستفهام، فهو من هذا النوع، لأن الله - عزَّ وجلَّ - لا يُستفهم ولا يُستعلم ولا يُستخبر، ولكن يجوز له التوبيخ والتقرير والتبكيث." (ابن جني، دت: ٣٥٥).

يُعتبر أسلوب الاستفهام من أكثر الأساليب الإنشائية استخدامًا وأهمية، حيث يهدف إلى طلب الفهم أو الحصول على معرفة حول أمر خارج الذهن. يتم الاستفهام باستخدام حروف وأسماء معينة، لكل منها معنى خاص بالإضافة إلى دلالتها الأصلية كأداة للاستفهام. ويخضع استخدام أدوات الاستفهام لقواعد نحوية محددة، كما بيّنتها كتب النحو؛ إذ يؤدي الجهل بهذه القواعد إلى الوقوع في أخطاء عند تركيب الجملة الاستفهامية، مما قد يؤدي إلى خلل في عملية التواصل (ناغش، ٢٠١٢: ٤).

أهمية أسلوب الاستفهام:

يُعد أسلوب الاستفهام من أهم الأساليب في اللغة العربية، ويكمن سرُّ أهميته في الدور الكبير الذي يلعبه في عملية التواصل بين الأفراد. فهو يساهم في تحقيق الوظائف التبليغية والحجاجية، حيث يعتبر من أبرز أدوات التخاطب، الذي يعتمد على وجود مرسل ومرسل إليه ورسالة. وبما أن الاستفهام هو نوع من الخطاب، فإن أغراضه تتنوع، فقد يكون حقيقياً أو مجازياً، وتتغير أشكاله وأهدافه وفقاً للسياق. لهذا السبب، كان الاستفهام موضوعاً رئيسياً في الدراسات النحوية، إذ تخصص له المصادر النحوية حيزاً كبيراً، وتحتوي على العديد من أقوال أوائل النحاة بشأن أدوات الاستفهام.

التداولية:

التعريف اللغوي: يرجع المصطلح إلى مادة (دَوَل)، وقد ورد في لسان العرب: "أَوَّلُ: الدُّوْلَةُ والدُّوْلَةُ العقبة في المال والحرب سواء، والدولة اسم الشيء الذي يُتداول، دالت الأيام أي دارت والله يداولها بين الناس، دواليك: ما تداولوا الأمر بينهم يأخذ هذا دولة وهذا دولة، وقولهم دواليك أي تداولوا بعد تداول" (ابن منظور، ١٩٩٧: مادة [دَوَل]).

وخلاصة هذا المفهوم اللغوي، أنّ مجالات استعمال كلمة تداولية تعني: التحول والانتقال من حال إلى أخرى، ويعني هذا المشاركة والتفاعل، وهذا قريب من مفهوم التداولية التي تعنى بالتفاعل بين المتكلم والمتلقي، فاهتمامها ينصب على دراسة العلاقة بين المتكلم والسامع، بكل ما يعتري هذه العلاقة من ملاسبات وشروط مختلفة؛ حيث تدرس كل العلاقات بين المنطوق اللغوي وعملية الاتصال بين المتكلمين والتفاعل بينهم.

التعريف الاصطلاحي للتداولية، أو ما يُسمى أحياناً بالبرغماتية، يشير إلى دراسة المعنى واستخدام اللغة بالنظر إلى المتكلم والمستمع، بالإضافة إلى العوامل الأخرى المرتبطة بسياق الكلام. تعدّ التداولية فرعاً من فروع الدراسات اللسانية التي تطورت في السبعينات من القرن العشرين، وتركز على دراسة عملية التواصل بين أفراد المجتمع وكيفية إنتاجهم لأفعال تواصلية في سياقات كلامية محددة.

ظهر مصطلح "التداولية" (Pragmatique) لأول مرة على يد الفيلسوف الأمريكي شارل ويليام موريس في عام ١٩٣٨، وذلك في مقال كتبه للموسوعة العلمية حيث حدد فيه مختلف المناهج التي تعالج اللغة. وقد تضمن ذلك علم التركيب

(النحو) الذي يدرس العلاقة بين الوحدات اللغوية، وعلم الدلالة الذي يهتم بمعنى الكلمات، ثم التداولية التي تركز على العلاقات بين الأدلة اللغوية ومستعمليها. وقد جاءت التداولية لتُعنى بتحليل العلاقة بين النصوص ومستعملي اللغة، أي الجانب التواصلية، وهو ما كان يُستبعد في الدراسات السابقة التي ركزت على علمي النحو والدلالة. كما أشار إلى أن "اللغة لا يمكن أن تتفصل عن استخدامها، ولا تقتصر على علمي النحو والمعاني فقط، بل إن الاتصال يلعب دورًا حيويًا إذا أردنا فهم حقيقة اللغة." (الرويلي، ٢٠٠٢: ١٦٩).

من المهام الأساسية للتداولية هو إبراز النشاط التفاعلي للغة، وخاصة التفاعل الذي يحدث في عملية التواصل. لكن هناك شروطاً يجب توافرها لكي يتحقق هذا التفاعل، وهي شروط اجتماعية وإدراكية، بالإضافة إلى ضرورة تحديد الحديث ضمن حدود زمانية ومكانية معينة لضمان حدوث هذا التفاعل.

تتمثل وظيفة التداولية، كما أشار إليها أوركيني، في استنباط العمليات التي تسمح للكلام بالترسخ ضمن سياقه، الذي يتألف من الثلاثة التالية: المرسل، المتلقي، والسياق التبليغي. لذا، فإن أي تحليل تداولي يتطلب بالضرورة تحديد السياق الضمني الذي يتم فيه تفسير الجملة." (فان دايك، ٢٠٠١: ١١٤).

جاءت التداولية لتجيب عن مجموعة من الإشكاليات التي تمثل موضوعاً لها مثل: ماذا نصنع حين نتكلم؟ ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟ من يتكلم إذن؟ وإلى من يتكلم؟ ولأجل من؟ وماذا علينا أن نعلم حتى يرتفع الإبهام عن جملة أو أخرى؟ وكيف نتكلم بشيء ونريد آخر؟ وهل يمكن أن نركن إلى المعنى الحرفي لقصد ما؟، هذه جملة من الأسئلة التي حاولت فرانسواز أرمينيكو (Frangoise Armingaud) الإجابة عنها في كتابها المقاربة التداولية (أرمينيكو، ١٩٨٦: ٧).

أسمى مبدأ تهتم به التداولية هو مبدأ التعاون الذي يضمن استمرارية العملية التواصلية (استمرار الحديث) من خلال المشاركة الفعالة في الحدث الكلامي المتواصل. كما يُعتبر مبدأ التأدب من المبادئ المهمة أيضاً، لأنه يفرض على المتحدثين احترام بعضهم البعض أثناء الحديث.

لكن التداولية قد تعرضت لعدة انتقادات، من أبرزها أنها نظرية تقتصر إلى وضوح الملامح والحدود، إذ لا تقدم حلولاً واضحة لبعض القضايا التي تثيرها. كما يُنقد أنها تتناول موضوعات سبق أن بحثها علم الدلالة، مثل دراسة المعنى، وهو أمر غير دقيق، لأن التداولية تهتم بدراسة المعنى في سياقه اللغوي.

أما على صعيد الدراسات العربية الحديثة، فقد شهدت التداولية تطوراً ملحوظاً، بدأ بترجمة آخر ما توصلت إليه الدراسات الغربية في هذا المجال، إلى جانب الاهتمام بمشكلة المصطلحات، حيث يسعى الباحثون العرب إلى وضع قواعد علمية دقيقة للتحكم في ترجمة المصطلحات وإدماجها في الاستعمال العربي المتخصص. ويُعتبر طه عبد الرحمن هو أول من استخدم مصطلح "التداولية" في اللغة العربية (طه، ٢٠٠٠: ١٨)، المصطلح الذي يُقابل في اللغة الفرنسية بـ "Pragmatique" وفي اللغة الإنجليزية بـ "Pragmatics"، يُعرف أيضاً في بعض الأحيان بمصطلح "الذرائعية" أو "علم التخاطب". بالإضافة إلى هذه المفاهيم الحديثة، هناك جهود لإعادة قراءة التراث العربي القديم واستخلاص الآراء التداولية الموجودة في العديد من مصادره.

أهمية الدراسة التداولية:

جاءت التداولية لتساوي بين لسانية اللغة ولسانية الكلام، حيث ركزت على الخطاب كإنتاج لغوي يُنظر إليه من خلال علاقاته مع ظروفه المقامية والسياقية. كما اهتمت بوظيفته التواصلية في تلك الظروف. أولت التداولية أهمية كبيرة للأطراف المختلفة في عملية التواصل، فركزت على المتكلم ومقاصده كعنصر فاعل في التواصل، كما أعطت للظروف

السياقية دورًا مهمًا كعوامل مساعدة لتحقيق تلك المقاصد. علاوة على ذلك، شددت التداولية على أهمية استغلال المتكلم لتلك الظروف السياقية من أجل الوصول إلى المعنى الذي يقصده (مدقن, ٢٠٠٧: ٧٨).

الحجاج والخطاب الشعري:

ميز أرسطو بين "الخطابة" التي تتميز بطابعها الحجاجي وهدفها الإقناعي، و"الشعر" الذي يتسم بطابعه التخيلي وهدفه التأثيري التطهير. جاء هذا التمييز في سياق تصديه لمغالطات الأقيسة السفسطائية التي استُخدمت فيها الحجاج للتضليل. ومن هنا ترسخ التعارض بين الإقناع والتخيل، وهو ما تبنته النظريات الحجاجية بشكل واسع، حيث اعتبرت الحجاج عملية "استدلال عقلي". (محمد، ٢٠١٣: ٣٠)، وظيفية الخطابة هي إقناع الأذهان بتسليم ما يُعرض عليها من أطروحات أو زيادة درجة ذلك التسليم. لكن المقارنة بين الشعر والخطابة لدى أرسطو لا تعني بالضرورة تقابلها في الشعرية العربية. فالتداخل بين العنصر الشعري والخطابي وارد جدًا في الأدب العربي، كما أشار "حازم القرطاجني" في عدة مواضع من كتابه منهاج البلاغ، حيث أكد أن المادة الشعرية التي انطلق منها أرسطو تختلف عن المادة الشعرية العربية. وقد بنى أرسطو تمييزه على أساس الفرق بين "الخطابة" والشعر المسرحي والملحمي السائد في الأدب اليوناني، بينما الشعر العربي يتميز بالغنائية. وهذا يعني أن التمييز الذي قام به أرسطو لا ينطبق بالضرورة على الشعر العربي، الذي يمتلك ماهية مغايرة.

وفي تعليقه على تفرقة أرسطو، قال "حازم": "لو أن هذا الحكيم أرسطو اطلع على شعر اليونانيين الذي وجد في شعر العرب من كثرة الحكم والأمثال، والاستدلالات واختلاف المعاني، وحسن تصرفهم في ترتيب الألفاظ ووضعها، وإحكام بنيتها واستخدامها اللفظي، وما يتسم به من دقة في التفاتاته وتتميماته واستطراداته، لما وضع من قوانينه الشعرية التي وضعها لشعر اليونان." (القرطاجني، ١٩٨٦: ٦٩).

وظيفة الشعرية العربية هي إقناعية وتأثيرية، لما تحتويه من استدلالات محكمة وتوظيف للأمثال، مما يجعل التمييز بين الشعر والخطابة، بناءً على التخيل والإقناع، يحتوي على مساحات تتيح التداخل بينهما. هذا التداخل هو ما دفع البعض إلى الجمع بين الشعر والخطابة في نفس الهدف، رغم إقراره بالتقسيم الأرسطي. فقد كان الغرض في كلا الفنين واحدًا، وهو استخدام الحيلة في إلقاء الكلام لتهيئة النفوس لقبوله، وبالتالي التأثير عليها. (القرطاجني، ١٩٨٦: ٣٦١).

في أشعار أبي فراس الحمداني، تبرز أهمية الحوارات الحجاجية دائمًا في إثبات الحق والدفاع عنه. فإظهار الحق يتطلب تأكيده بالحجة والبرهان، واستخدام المنطق السليم في الأقوال والألفاظ. لذلك، شهدت العديد من المجالس العلمية والأدبية والفلسفية العديد من حلقات الحوار الغنية والمثمرة. وهو أهم أشكال التفاعل اللفظي، وهو المجال الطبيعي الذي يقع فيه الحجاج بامتياز، لبرز لنا أعماق الفكر مستندا بالحجج والبراهين، كوسيلة لإثبات جهل وإفلاس الطرف الآخر، لينحدر منحني الحوار تارة، و يرتقي أخرى بأداب إسلامية. وحتى نصل إلى نظرة شمولية لهذا الفن وإن كانت موجزة فقد استدركنا جزءا من مفهوم الحوار الحجاجي كعلم ديني وفلسفي وأدبي لغوي.

بدأت المحاورات كعلم ديني يهتم بالمسائل الفقهية والدينية والعلمية، حيث كانت أصوله وعلومه تهدف إلى الوصول إلى الحق والصواب. وقد تمكن القرآن من تأصيل هذا العلم كعلم ديني، وأرسى آدابه من خلاله.

وقد جاء في قوله تعالى: "وَلَا تُجَدِّلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ" (سورة العنكبوت: الآية [٤٦]). وقوله عز وجل: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ" (سورة

النحل: الآية [١٢٥]). وقوله جل علاه: "مَا يُجِدِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَعَزُّوكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ" (سورة غافر: الآية [٤]). كلمة "تجادل" مأخوذة من "الجدل" و"الجدلة"، وتعني ما تم إحكام ربطه من كلام أو شعر (الفيروز آبادي، ١٩٩٤: مادة: (ج د ل)). أما المناظرات في مجالات العلوم المنطقية والفلسفية، فقد برزت في العديد من المؤلفات، من أبرزها:

- شرح الرسالة العضدية للتبريزي السمرقندي.

- شرح آداب المناظرات للرازي، الذي يعد من أشهر المتكلمين والفلاسفة. وقد كانت المناظرات تحمل دلالات فلسفية ومنطقية، حيث اعتبرها أدباً فلسفياً منطقيًا. وقد قال في هذا السياق: "ليس من الذم أو التوبيخ كما يعتقد البعض، بل هو تقرير للحق؛ فمن قرر الحق استغنى عن تهجين أهل الباطل." (الرازي ١٩٩٢: ١٢).

المناظرات تُعتبر "علم قوانين الفكر"، و"النظر هو الفعل الذي يصدر عن النفس لاستحضار المجهولات من المعلومات". في اللغة، تشير المناظرات إلى "النظر"، (ماهر، د/ت: ١٦، صليبا، د/ت: ٤٧٣). حيث تحرك الفكر في موضوع ما لنقيسه ونقدته بشكل متقابل ومتناظر، كما يعني "النظر" تأمل الشيء بعين العقل. (الفيروز آبادي، ١٩٩٤: مادة (ن ظ ر)). يظهر أن مفهوم المناظرات، الذي نشأ كعلم ديني أو فلسفي، قد برز بشكل أكبر من كونه علمًا أدبيًا جماليًا، رغم أنه يجمع في طياته إثبات الحجة والبرهان. ويعد هذا الغرض من الأغراض الأقل اهتمامًا لدى أبي فراس، الذي ابتعد عن هذا الفن إلا عندما تفرض عليه الظروف، كما في حالتين حجاجيتين وقعتا بينه وبين الدمستق، حيث اضطر للدفاع عن نفسه وتقديم الحجج تلو الأخرى.

إن الطابع الحوارية لهذا النص منحّه قوة حجاجية كبيرة، مما أبرز بوضوح الوظيفة الحجاجية والإقناعية، وهي إحدى الخصائص الأساسية للنص الشعري والنص الأدبي بشكل عام.

لقد سطر الشاعر في هذا النص الأول خطاباً قويا لإمبراطور البيزنطيين (نقفور فوقس) والتي حوت هجاء محضاً دعمه بالقرائن والحجج التاريخية في رده على اتهامه لهم "بأنهم أهل كتاب ولا يعرفون الحرب" وقد رد عليه أبو فراس (نحن نطأ أرضك منذ سنين بالسيوف أم بالأقلام؟) (الدويهي، ١٩٩٤: ٤٢).

يقول (الدويهي، ١٩٩٤: ٣١):

أَتَزَعُمُ يَا صَخْمَ اللَّغَايِدِ، أَنَّنَا
وَنَحْنُ أَسْوَدُ الْحَرْبِ لَا نَعْرِفُ الْحَرْبَا؟

استهل الشاعر أبياته باستفهام إنكاري، ينكر فيه ادعاء الإمبراطور بضعف العرب واقتصارهم على الأقلام والشعر، فيعلن أبو فراس جهراً علو شأن العرب على غيرهم فهم دعاة الحرب فكيف ينكرونها عليهم. فاستخدم الشاعر أسلوب النداء مقروناً بصخم اللغايدي وهي لحمية في الحلق وكناية ضخامة الرقبة. فعمد الشاعر إلى الانتقال من الشكل الجسدي للرومي، في دلالة استهزائية ساخرة (الحجاج بالسخرية). ومن خلال ذلك يتبين:

١. أداة الاستفهام كلمة «أتزعم» هي أداة الاستفهام الرئيسية في الجملة. تعبر عن الاستفهام الإنكاري/الاستنكاري، أي استنكار واقتراب من النفي أو التشكيك. تأتي مركبة مع فعل متضمن تشكيكاً أو استنكاراً لادعاء الخصم.

٢. نوع الفعل الكلامي هنا هو: «أتزعم» وهو فعل كلامي استفهامي إنكاري/استنكاري. يسند للفعل الكلامي في العبارة ما يلي: يحتوي على مضارع يحمل معنى التشكيك أو النفي المفترض. ليس استفهاماً عادياً للحصول على معلومات، بل هو إدانة ضمنية لادعاء معين.

٣. الغرض التداولي من هذه الاستهجمات هو الرفض والحجاج والنقد:

أ. غرض نقدي واستنكاري الشاعر لا يسأل عن حقيقة واقعة بالفعل، بل يستنكر ادعاء الخصم بأنه لا يعرف الحرب. الاستهغام هنا يستخدم ليظهر ضعف الادعاء.

ب. غرض تأكيد الذات الشاعر يعبر عن ثقة وشك في ادعاء الطرف الآخر. يجسد الانتماء إلى المقاتلين: «نحن أسود الحرب» — أي أنهم يعرفون الحرب جيداً.

٤. الأثر الحجاجي إستعمال الاستهغام الإنكاري في هذا السياق له أثر حجاجي من خلال:

أ. إضعاف ادعاء الخصم من خلال صيغة سؤال مشكك، يستفز الشاعر الطرف الآخر ويجعله في موضع دفاع بدلاً من ادعاء.

ب. رفع الدليل برفض النفي الاستهغام هنا يجعل نفي المعرفة بالحرب غير معقول: بدلاً من التصريح بقوة "نحن نعرف الحرب"، يأتي السؤال ليضعف المعرفة بالحرب يبدو ضعيفاً.

ج. تعزيز الذات القتالية التركيز على "أسود الحرب" يعطي دلالة أسطورية/قوة ويؤكد على: شجاعة وخبرة الفاعلين الحقيقيين في الحرب. تضخيم التناقض بين القول والواقع.

وقوله (الدويهي، ١٩٩٤: ٤٢):

فَوَيْلُكَ؛ مِنْ لِحَرْبٍ إِنْ لَمْ نَكُنْ لَهَا؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي يُمْسِي وَيُضْحِي لَهَا تَرَبًّا؟

يتوعد الشاعر أبو فراس الإمبراطور، ويستأنف إنكاره ولكن بوعيد وتهديد وقد قرن أبو فراس الحجة في البيت السابق: (من هو ذا الذي يمسي ويضحى لها تراباً) فعاصر الشاعر الحرب منذ نعومة أظفاره، فتجلت في ملامح الحكمة التي استقاها منها، بل إن حكمته تعدل من عاصر الحرب منذ نشأتها الأزلية. ومن خلال ذلك يتضح:

١. الأداة الأولى استفسار: «فَوَيْلُكَ؛ مَنْ لِحَرْبٍ إِنْ لَمْ نَكُنْ لَهَا؟» أداة الاستهغام: «مَنْ» وتسبقها «فويلك» كأداة إنذارية/تنبيهية، أي أنّ الخطاب فيه تهديد أو تنبيه قبل الاستهغام نفسه. وعبارة «من للحرب» هنا تطرح سؤالاً عن الفاعل إذا لم يكن هم — أي: من سيقوم بدورهم لو لم يكونوا هم؟ والثاني استفسار: «وَمَنْ ذَا الَّذِي يُمْسِي وَيُضْحِي لَهَا تَرَبًّا؟» أداة الاستهغام: «ومن ذا الذي» صيغة استهغامية تعجبية/إنكارية أكثر من كونها طلب معلومة. تسأل عن من يكرس وقته وجهده للحرب "يمسي ويضحى" — أي من يبذل نفسه صباحاً ومساءً في الحرب.

٢. نوع الفعل الكلامي كلا السؤالين يستخدم الفعل الكلامي الاستهغام الإنكاري/الاستنكاري: لا يطلب مجرد معلومات موضوعية، بل ينفي ضمناً غياب الشاعر ورفاقه عن الحرب وي طرح سؤالاً يبين استحالة وجود "من يقوم بهما" إذا لم يكونوا هم. نوع الفعل هنا: استهغام إنكاري/استنكاري يعبر عن رد قوي على ادعاءات الخصم أو موقفه. (الصيغة «من...؟» تبرز نفيًا ضمناً لمدى قدرة غيرهم على الفعل المطلوب).

٣. الغرض التداولي الحجاج والنفي والتأكيد: الشاعر لا يريد أن يستعلم عن من يقوم بالحرب، بل يثبت قدرته وقوة نفسه وجماعته في ميدان الحرب أمام من يشكك بذلك. فالاستهجمات هنا جزء من خطاب قوي دفاعي وهجومي في سياق مواجهة خصم أو موقف، تظهر شخصية المتكلم وشجاعته. «فويلك» و«ومن ذا الذي يمسي ويضحى» يعكسان تهديداً واستنزافاً بدل سؤال بسيط؛ الغرض هو الدعوة إلى الاعتراف بقيمة الشاعر وجماعته في الحرب وعدم التقليل من شأنهم.

٤. الأثر الحجاجي:

أ. إظهار قوة الذات وإبطال الشك: الاستهجمات في هذه الأبيات تدفع السامع/الخصم إلى أن يتوقف أمام استحالة وجود بديل لهم في الحرب؛ فإذا لم يكونوا هم، فمن؟ مثلاً: «من للحرب إن لم تكن لها؟» إن لم تكن نحن بخبرتنا وقوتنا، فمن البديل القادر؟ «ومن ذا الذي يمسح ويضحي لها تريباً؟» من يبذل نفسه صباحاً ومساءً في الحرب؟ بهذا يستفز الشاعر من يشكك فيه ليووجه نفسه بإجابات منطقية تطعن في موقفه.

ب. خلق موقف دفاعي حماسي: الأبيات تؤسس لحجة تقول لا قيمة لمن يتخلى عن الحرب أو يزعم جهلاً فيها، ويضع المستمع أمام صورة من المثالية والحماسة. والاستهجمات تؤدي وظيفة إنذارية مختلطة بحجاج فعال، فهي لا تكتفي بطرح سؤال فقط بل تؤكد موقف الشاعر وأهميته في الساحة القتالية والحياتية.

ويكمل بعد ذلك إكمال القرن والحجة تلو الحجة يقول (الدويهي، ١٩٩٤: ٣١):

وَمَنْ ذَا يَلْفُ الْجَيْشِ مِنْ جَنَابَاتِهِ؟ وَمَنْ ذَا يَقُودُ الشَّمَّ أَوْ يَصِدُّمُ الْقَلْبَا؟

لقد جعل أبو فراس شجاعته بارزة، حين يصور الالتفاف الشامل الذي يحيط بالعدو، بل ويقود الجيش العدو ويخترقه، فجعل الشاعر الحركات الإستراتيجية للحرب داخل ساحة المعركة تتمثل في الالتفاف والاختراق في وقت واحد، كما يدل على كثرة العدد في الالتفاف، والسرعة والشجاعة في اختراق صفوف العدو .

وإن إقامة الحجة بالشكل الهندسي السابق دلالة على أن الشاعر على دراية بتركيبات وتجزئات الشكل والمحور في ذات الوقت.

وقوله (الدويهي، ١٩٩٤: ٣١):

وَوَيْلِكَ؛ مَنْ أَرْدَى أَخَاكَ بِمِرْعَشٍ " وَوَيْلِكَ مَنْ خَلَى ابْنَ أُخْتِكَ مُوثِقًا؟

وَخَلَاكَ بِاللَّقَانِ تَبْتَدِرُ الشَّعْبَا؟

يذكر الشاعر إمبراطور الروم ما خلفت الحرب، من آثار بأقربائه كانت لهم علامات ثابتة على وجوههم وأرجلهم. فقد بدأ الشاعر إقامة الحجة بإتيان الأماكن التي وقعت فيها تلك الحروب الثائرة "بمرعش واللقان"، ثم قرن الأماكن بالأثر التي خلفته من علامات حسية وهروب وانهزام، وفي استدعاء الشاعر للصلوات القريبة من العدو تظهر لنا قوة الاستدلال بذكر الأخ والأب وابن الأخت فإن هؤلاء الثلاثة هم من يشكلون الهرم القوي والثابت للفرد، فيعتز بنصرهم ويثار لثارهم في محاولة للتقليل والتحقير من أصول العدو .

وقوله (الدويهي، ١٩٩٤: ٣٢):

أَتُوَعِدُنَا بِالْحَرْبِ حَتَّى كَانْنَا وَإِيَّاكَ لَمْ يُعْصَبْ بِهَا قَلْبُنَا عَصْبًا؟

لَقَدْ جَمَعْتَنَا الْحَرْبُ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ فَكُنَّا بِهَا أُسْدًا؛ وَكُنْتَ بِهَا كَلْبًا

انتقل الشاعر إلى الشاهد الحسي في إثبات القوة والحرب، فكيف يستنكر الدمستق حروبهم وقد حصرها، وجمعتهم بها أيما كثيرة، وليس هناك أبرز من إثبات الحجة بالحواس المدركة، وهذا ما عمد إليه الشاعر مع ربطها بدلالات ساخرة وتهكمية تدل على الجبن والخذلان بقوله (كلبا).

ويقول:

فَسَلِّ بَرْدَسَا عَنَّا أَبَاكَ وَصِهْرَهُ وَسَلِّ آلَ بَرَادَلَيْسَ أَعْظَمَكُمْ حَطْبًا!
 وَسَلِّ قَرْقُوسًا وَالشَّمِيمِشَقَّ صِهْرَهُ وَسَلِّ سِنْبَةَ الْبَطْرِيقِ أَتْبَتَكُمْ قَلْبًا!
 وَسَلِّ صِيدَكُمْ آلَ "أَمَلَايْنِ" إِنَّا نَهَبْنَا بِيضَ الْهَيْدِ عَرَهُمْ نَهَبًا!
 وَسَلِّ آلَ "بَهْرَامٍ" وَآلَ "بَلَنْطُسٍ" وَسَلِّ آلَ "مَنْوَالِ" الْجَحَاجَةَ الْغُلْبَا!
 وَسَلِّ "بِالْبُرْطُوسِيِّسِ" الْعَسَاكِرَ كُلَّهَا وَسَلِّ "بِالْمَنْسَطَرِ يَاطِسِ" الرُّومَ وَالْعُرْبَا!

١. أداة الاستفهام / الاستدعاء أداة السؤال الأساسية: «سَلِّ» هذه صيغة أمر واستفهام حجاجي/تحقيقي بمعنى «اسأل أو اعرف عن...» لكن بصيغة تحفيزية وحماسية لا طلب معلومة محايدة. استخدامهما يتكرر في كل بيت، مما ينشئ نسفاً سؤالياً متسلسلاً لكنه ليس طلباً عادياً للمعلومة بل دعوة فاعلة للتذكّر أو الاستحضار.

٢. نوع الفعل الكلامي العبارة «سَلِّ» هنا تعمل كفعل كلامي استفهامي/تحقيقي حجاجي. هي ليست مجرد سؤال تعلقه علامة استفهام لغوية، بل تحريض على إثارة الذاكرة لدى المخاطب، مثل: «اسأل أولئك عن والدك وصهره» «اسأل أقوامك عن عظمهم وخطبهم» أي: استعدّ لتجربة الإجابة بنفسك أو أن يجيبك الواقع لا الكلام».

٣. الغرض التداولي من هذه الصيغة في هذا السياق متعدد:

أ. حجاجي/إنكاري الشاعر يعيد تذكير الخصم/المستمع بأسماء وأحداث معروفة في التاريخ الحربي، ويدفعه أن يواجه حقيقة من أحسن من الآخرين في السيوف والبطولات.

ب. إثبات الذات من خلال تكرار «سَلِّ» عن معارك وأفراد معينين، الشاعر يؤكد على أن: حربه لم تكن ضعيفة نجدهم في صدارة السيوف لا يقف أمامهم من يضاھيهم هذا كله لإظهار مكانته ومكانة قومه في الساحة القتالية.

ج. تذكيري/استفزازي بذكر أسماء متكررة (بردسا، برادليس، قرقواس...) يُستفز المخاطب ليستحضر: ما حلّ بخصومهم وما سُجل تاريخياً ضدهم وما يعجزون عن إنكاره أو تجاوزه هذا نوع من الاستفزاز الحجاجي لا طلب معلومة.

٤. الأثر الحجاجي

أ. تذكير بالتاريخ الميداني التكرار في «سَلِّ...» يدفع المخاطب أو القارئ أن يتذكر ما حدث فعلياً في المعارك والقضايا: المعارك التي خاضها الشاعر أو قومه وأبطالها وما خلفته من أثر وهذا يجعل السؤال أقرب إلى استدعاء الحقيقة بدلاً من طلبها.

ب. إحراج الخصم من خلال هذا الأسلوب، يضع الشاعر خصمه في موضع ينبغي عليه أن يعترف: بأن ما يزعمونه من قوة أو معرفة ليس لهم وبأن الحقائق التاريخية تحكي عكس ذلك بذلك يتحول السؤال إلى قوة حجاجية تثبت حق الشاعر وتدحض ادعاءات الخصم.

ج. ترسيخ الثقة الأسلوب لا يعبر عن تردد أو شك، بل عن ثقة مطلقة في الذات العسكرية والحضارية للشاعر وقومه.

ولربما يتعذر علينا فك طلاسم بعض الأسماء السابقة فهي أسماء لشخصيات بيزنطية أسراً وأفراداً، ففي الأبيات السابقة تتمثل لنا عظمة الشاعر فهو يعد مؤرخ حروب كبيرة (الحجة التاريخية).

عند حشده لكل تلك الأسماء رغم صعوبة ألفاظها إلا أن الشاعر لعب دورا كبيرا في عديد من الوقائع والغارات، وقد سقط أسيرا مرة أو مرتين كما أنه أقام فترات طويلة بسجون القسطنطينية، مما جعله مدركا وحاشدا لكل الأسماء البيزنطية الحربية "فبردرس هو من تولى الجيوش البيزنطية بعد عزل قراقوس وهو خصم سيف الدولة في معظم غزواته" (الدويهي، ١٩٩٤: ٤٢). "أما الشميشق فينتمي إلى لأسرة أرمنية عريقة، يتصل نسبه من جهة أبيه بأسرة قراقوس ومن جهة أمه بأسرة الفقاس، فهي أخت نقفور وليون وقسطنطين، وقد نمت المصاهرة بينه وبين الدمستق قراقوس، وهي التي أشار إليها أبو فراس عندما قال: "وسل قرقواسا والشميشق صهره" (الدويهي، ١٩٩٤: ٢٢٦).

أما عن صهر "بردرس" وهي الشخصية الغامضة التي لم يصرح بها الشاعر فهو "أوهغرم أو أجورغ أو تودس الأعور والذي تحدث عنه المؤرخون العرب في موقعة الحدث عام ٣٤٣هـ" (دونتنس وم. كانار من الموقع الإلكتروني: www.nizwa.com). إن من الصعب جدا تتبع كل اسم ذكر في الكتب الأدبية والتاريخية، عدا شخصيات شهيرة كبردرس مثل ما ذكرنا أو "نقفور" أو "الشميشق".

ولكن ما يهمننا هي الصورة التي ربطها الشاعر فقط ربط شخصيات الروم بأفعال وصفات مدح لا للمدح وحده؛ فالمنطق عند أبي فراس يبين أن العظمة قد يغلبها القوة الإيمانية الصلبة فمهما بلغت قوة الجيش الرومي، إلا أنه ينكل ويعذب ويسقط أمام الجيش الإسلامي.

وقوله (الدويهي، ١٩٩٤: ٤٣):

بِأَقْلَامِنَا أُجْرِتْ أَمْ بِسُيُوفِنَا ؟ وَأَسَدَ الشَّرَى قُدْنَا إِلَيْكَ أَمْ الْكُتُبَا؟

لقد أثبتت السيوف العربية الإسلامية، سطوتها في حربها ضد الروم وهذا ما ينفي الاتهام ويدعم الحجة.

وقوله (الدويهي، ١٩٩٤: ٣٢):

تَرَكْنَاكَ فِي بَطْنِ الْفَلَاةِ تَجُوبُهَا تَرَكْنَاكَ فِي بَطْنِ الْفَلَاةِ تَجُوبُهَا

رَعَى اللَّهُ أَوْفَانَا إِذَا قَالَ ذِمَّةً كَمَا انْتَفَقَ الْيَرْبُوعُ يَلْتَمُّ التَّرْبَا؟

لَقَدْ أَوْسَعْتَكَ النَّفْسُ، يَا بُنْ أَسْتَهَا كِذْبَا وَأَنْفَذْنَا طَعْنَا، وَأَثْبَتْنَا قَلْبَا

وَجَدْتُ أَبَاكَ الْعِلْجَ لَمَّا خَبَرْتُهُ أَقْلَكُمْ خَيْرًا، وَأَكْرَمَكُمْ عُجْبَا

لقد أورد الشاعر أفعالا تتم على شدة الإهانة في التحقير والتصغير للرومي: تركناك في بطن الفلاة-يلتم التربة-أوسعتك النفس-ابن استها-كذبا)، كلها دلائل وبراهين على القوة الحربية في ساحة المعركة، التي شهدت على انحذار العدو. ثم يختم القصيدة على غرار ما جاء في بدايتها على ذكر الأب المستحق واليشع المنظر، فعلج تعني: (الغير - والحمار - والعلاج هو: "الرجل من كفار العجم" (الفيروز آبادي، ١٩٩٤: مادة (ع ل ج)).

نصل من خلال هذا النص إلى أن الشاعر في هذا الجوار الحجاجي مع العدو، جمع بين الفصيح والأسماء الأعجمية في نسيج درامي، حاول فيه الكاتب أن يرضي نفسه أولا، فعمد إلى الكتابة بأسلوب غنائي ساخر. تعددت فيه الصور الجسمانية والتشبيهات البلاغية والبديعية مثل: (انتفق اليربوع) كناية عن الموت منقلبا على ظهره فدللت على حجم الإهانة التي لقيها العدو. فوجدنا الطباق عند الشاعر له أكبر الأثر في استجلاء الفروقات وكان التكرار تأكيدا لتلك الحقائق، كما أن التكرار للرباط الحجاجي وكذا مفردات بعينها، في النص الشعري، يساهم في جعله منسجما إن بيانيا وإن تداوليا وحجاجيا، ليس ذلك التكرار المولد للرتابة والملل، أو التكرار المولد للخلل والهلالة في البناء، ولكنه التكرار المبدع الذي

يدخل ضمن عملية بناء النص أو الكلام بصفة عامة، إنه التكرار الذي يسمح لنا بتوليد بنيات لغوية جديدة باعتباره أحد ميكانزمات عملية إنتاج الكلام، وهو أيضا، التكرار الذي يضمن انسجام النص وتواده وتتاميه.

وإذا نظرنا في خطاب الشاعر، نجد أن التكرار يشمل عناصر عديدة:

- تكرار ألفاظ بعينها نحو: وويلك، وسل، من ذا...الخ.

- تكرار مقاطع النص (من حيث شكل المقطع وبنيته الهيكلية) قوله: "من ذا الذي يمسى ويضحى" ونجد تقنية التكرار بشكل كبير في القصيدة (الدويهي، ١٩٩٤: ٣٣).

وويلك من أردى أخاك بمرعش وويلك من خلى ابن أختك موثقا

وفي قوله (الدويهي، ١٩٩٤: ٧٩):

وسل قرقواسا والشميشق صهره وسل صيدكم آل الملايين

وبخصوص تكرار المقاطع، فيلاحظ القارئ أن المقطع الأول يبتدئ بكلمة "وويلك"، وفي الثاني ب"وسل"، مما يساهم بشكل كبير وفعل في تنامي النص وتواده وانسجامه، فالعلاقات الحجاجية تقوم بينها علاقات تسلسل وترابط، وفق المبدأ السيميائي المعروف، مبدأ ارتباط السابق باللاحق.

لا نجد في النص السابق أي استشهاد ديني، أو ربط الحجج ببراهين دينية واعتمد كلياً على الوقائع الحربية كاستشهادات مبرهنة وثابتة. فالطابع الحجاجي العام للمناظرة هو طابع الهزل والسخرية بدأها بقوله: "أتزعم يا ضخم اللغادي...". وختمها بقوله: "وجدت أباك العلج" ونرى الشاعر استخدم في تواصله مع الآخر، حقلاً من الحقول الدلالية واستحضر الحيوان بصورته الدالة على الشجاعة (أسد الثرى) ليعبر عن الأنا، وبالذات المعاكسة (اليربوع)، (العلج) لتحقير الآخر فكل عنصر من هذه العناصر يساهم بشكل من الأشكال، وحسب ماله من إمكانيات تعبيرية وتبليغية في خلق الإنسجام الحجاجي، وفي إنجاح العملية التواصلية التي يسعى الشاعر إلى أن يقيمه مع المتلقي وفقاً لمقاصده وأهدافه الحجاجية، ووفقاً لشروط ومتطلبات السياق التخاطبي والاجتماعي والثقافي العام. مما اكسب النص منحى تصاعدياً درامياً للأحداث باستدعاء الأماكن للشخصيات وجعل النص حافلاً بالمعارك والأحداث وجسد شعور أبي فراس بانتمائه العربي وموقف الدفاع عنهم فغضب الشاعر وحنقه على الدمستق، جعل النص يصب في قالب ساخر لاذع أكثر منه نص صوري، فما نخلص إليه -مما تقدم- هو أن التكرار، سمة غالبية على خطابنا المنطوق والمكتوبة، وحواراتنا اليومية المتنوعة (الحوار الصريح، والحوار المضمّر، الحوار الأفقي، العمودي، الحضاري، الديني...الخ)، يشمل جميع عناصر النص الصوتية والصرفية والتركيبية والمعجمية الدلالية، ومستوى الصورة.

مع الإشارة إلى إبراز أهمية التحليل التداولي الحجاجي للنصوص، وإلى الكشف عن الوظيفة الإقناعية والحجاجية للخطاب الشعري، فالشاعر لا يهدف إلى إخبار القارئ (المتلقي) ولا يقصد إلى تقديم المعلومات والأخبار إليه، فليست وظيفة هذا النص إعلامية إخبارية وإنما هي وظيفة حجاجية تأثيرية إقناعية، وفق ما تقر به نظرية "الحجاج في اللغة"، فاللغة بالنسبة لهذه النظرية الحديثة، هي أساساً فعل وسلوك وحجاج، وليست إخباراً ونقلًا للمعلومات .

الحِجَاج بين الجدل والحوار:

غالبا ما يذكر إلى جانب الحِجَاج مصطلحات أخرى تكون مرادفة له منها: الحوار، الجدل التحوار، المناظرة، المناقشة، المخاصمة، المحادلة، المعارضة... الخ، غير أن أكثر المصطلحات التصاقا بالحِجَاج مصطلحي الجدل والحوار. ففي اللغة نجد أن "الجدل يحمل معنى المخاصمة والمناظرة والجدل، وأيضا مقابلة الحجة بالحجة ويحمل أيضا معنى المغالبة" (التومي، د/ت: ٧٠)، وهو ذات المعنى الذي يحمله الحِجَاج في معنى مقابلة الحجة ومعنى التغالب، فالجدل مجملا يطلق على المشادة الكلامية، التي تسعى إلى تحقيق الغلبة والتفوق لأحد الأطراف وإلحاق الهزيمة بالخصم (ابن منظور، ١٩٩٧: مادة (ج.د.ل.))، أو هو إقناع الخصم بواسطة القواعد والأساليب والطرق التي يتوصل بها إلى تحقيق الهدف من الكلام سواء أكان ذلك الكلام أم الرأي في الفقه أو غيره، وهذا الإقناع يكون من خلال: "يعرف الجدل بأنه مجموعة من القواعد والحدود والآداب في الاستدلال التي يتم من خلالها حفظ الرأي أو هدمه، سواء كان هذا الرأي في الفقه أو غيره. ويُعتبر هذا التعريف أقرب إلى العلوم اليقينية والعقلية. في المقابل، هناك تعريف آخر للجدل يرى صاحبه أنه "قدرة كلامية وبراعة حجاجية." (التومي، د/ت: ١٤).

يُوصف هذا التعريف الجدل بأنه قدرة كلامية يستخدمها المتكلم لإقناع المستمع أو المتلقي، وبالتالي يُعد الجدل أحد أوجه الحجاج، حيث يتم استغلال اللغة في المنازعة والمغالبة. وعليه، يصبح الجدل معادلاً للحجاج، إلا أنه أوسع نطاقاً، نظراً لأن الهدف الأساسي من الجدل هو "إلزام الخصم والتغلب عليه في سياق الاستدلال." (أبو زهرة، ٢٠٠٥: ٥٠)، بينما لا يلزم الحجاج الخصم بالإدعان والقبول، بل يترك له حرية الاختيار؛ فإذا اقتنع بحجج المتكلم، يذعن له، أما إذا لم يقتنع فله الحق في الرفض والاعتراض. وقد نظر العرب القدامى إلى الجدل باعتباره مرادفاً للحجاج، وفهموه بهذه الصورة. وقد استمرت هذه النظرة حتى العصر الحديث، حيث نجد بعض الدراسات الحديثة تمزج بين المصطلحين وتعتبرهما مترادفين، كما يظهر في كتاب "مواقف الحجاج والجدل في القرآن الكريم" للهادي حمو. (عبد الله، ٢٠١٢: ١٤).

إن الترادف بين المصطلحين يعود إلى اعتمادهما على نفس العناصر المكونة للعملية التواصلية، وهي: المتكلم، والمستمع، والخطاب. إلا أن هذه النظرة، سواء من قبل القدماء أو بعض المحدثين، قد تحدت من نطاق الحجاج وتجعله يقتصر على الجدل باعتباره صناعة منطقية بحتة (عبد الله، ٢٠١٢: ١٥).

اعتبار الحجاج مرادفاً للجدل يعد مغالطة كبيرة، إذ يؤكد عبد الله صولة وآخرون على أن الحجاج أوسع نطاقاً. فهم يرون أن "كل جدل هو حجاج، ولكن ليس كل حجاج يعد جدلاً" (عبد الله، ٢٠١٢: ١٥)، وبذلك، يخرج الحجاج من نطاق الجدل الذي حاصره وضيق مجاله، وهو المجال الذي يُعتبر مُقتصرًا على الأمور غير اليقينية والممكنة. بينما يُركز الجدل على اليقين والحقيقة. ومن هنا، يتضح أن الجدل يمكن أن يكون في بعض جوانبه حجاجاً، كما أن الحجاج يمكن أن يتحول في بعض جوانبه إلى جدل، إلا أن الحجاج يظل أوسع وأشمل من الجدل. أما الحوار أو التحوار، فهو "مراجعة المنطق والكلام في سياق المخاطبة" (ابن منظور، ١٩٩٧: مادة (ح.و.ر.))، المحاورَة تعكس التفاعل بين الطرفين؛ حيث يطرح الطرف الأول رأياً أو سؤالاً، فيرد عليه الطرف الثاني ويقوم بمناقشته وتحواره. هنا يتداخل معنى الحجاج مع معنى التحوار، فالمحاجج، عند طرح حجته، يتوقع من الطرف الآخر أن يشاركه النقاش ويسأله ويحجب عليه.

يتيح هذا التفاعل للمعنى الحجاجي الاقتراب من الحوار، حيث يشمل حرية الرأي للطرف الآخر. في العملية الحوارية، يحق للطرف الثاني رفض أو الاعتراض على خطاب الطرف الأول، مما يجعل نقطة التقاء بين الحجاج والحوار واضحة. بذلك، يمكن القول إن الحوار هو أحد أوجه الحجاج من خلال ما يحدث في العملية الحوارية؛ إذ يحاول كل طرف إقناع الآخر

دون الضغط عليه لتحقيق الإذعان، مستخدماً في ذلك كل آليات الحجاج المتاحة. من جهة أخرى، يقترب الحجاج من الحوار باستخدامه كأداة لإقناع المتلقي، مما يعني أن الحوار جزء لا يتجزأ من الحجاج.

يتجلى البعد التداولي للخطاب الحجاجي في الحوارية، حيث يُعتبر الحجاج عملية تكييف للمبادئ الحوارية العامة بما يتوافق مع متطلبات وظيفية خاصة هي إدارة الخلاف. فالحوار، مثل أي نسق آخر، يحتاج إلى آليات تنظيمية لمواجهة القضايا الخلافية، ووضع الحجة في سياق الخلاف، وتحديد وظيفتها التداولية، خاصة أن الخلاف يرتبط بالأفعال اللغوية الحوارية.

يُعد الحجاج الحوارية من الأنماط الشائعة في القرآن الكريم، لملاءمته المواضيع التي تتطلب حججاً عقلية مقنعة. ومن ذلك قوله تعالى: "إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْتَبُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَهُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنِينَ * وَجَنَّتْ وَعُيُونَ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعظت أم لم تكن من الواعظين * إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأُولِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ" (سورة الشعراء: الآيات [١٤٠ - ١٢٤]). في بداية الحوار، يعرف صاحب الدعوة نفسه قائلاً: "رَسُولٌ أَمِينٌ"، مؤكداً أنه مُرسل برسالة واضحة، وأن دعوته ليست من إرادة نفسه. بعدها يوضح مضمون دعوته التي تتلخص في تقوى الله وطاعته، مشيراً إلى أنه لا يسعى وراء أي مكافأة مادية، بل هدفه هو إصلاح أحوالهم وليس جني المال. ثم يذكرهم بفضاعة أفعالهم وظلمهم للناس، وتفضيلهم للدنيا على الآخرة. وبعد ذلك، يواصل دعوته إلى خشية الله الذي أنعم عليهم بكل ما يملكون.

لقد ذكر هذه النعم بترتيب محكم، حيث بدأ بنعمة العلم، التي هي من أسمى النعم التي يمتلكها البشر في جميع العصور والأمكنة. ثم تطرق إلى نعمة الأنعام التي تُعتبر رزقاً للإنسان في مأكله ومشربه ومركبه، وكذلك في التجارة وكسب المال. تلى ذلك نعمة الأولاد، التي تكمل بها سعادة الإنسان، ثم نعمة الزرع والماء، التي لا غنى للإنسان عنها في شؤون حياته اليومية.

كانت هذه التذكرة من صاحب الدعوة لقومه بأنعم الله عليهم، وهي في ذات الوقت حجج عليهم في حوار حجاجي مفعم باللين، على أمل أن يستجيبوا ويعودوا إلى رشدهم. إذ يُشير صاحب الدعوة إلى أن العاقل هو من يعترف بعجزه ويقر بنعمة الله عليه، قائلاً لهم: "من غير المنطقي أن تكفروا بمن أنعم عليكم". فحق المنعم على عباده هو الشكر والعرفان، وهذا الشكر لا يكون بالكلام فقط، بل يتحقق بالفعل الصالح والطاعة لأوامر الله، سواء في فرائضه أو نواهيها. لكن قوم عاد جحدوا هذه النعم واستمروا في الظلم والتعدي، فانقل أسلوب الدعوة من الوعظ الهادئ إلى أسلوب التهديد، كما يظهر في قوله: "إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ" (سورة الشعراء: الآية [١٣٥]). ربما كان هذا يُقصد به أن يشعرهم بالخوف من الله القوي الجبار، لكن الغرور قد أعشى بصائرهم وزاد من كبريائهم، فصعب عليهم الاعتراف بخطأ آبائهم أو تقليل شأن ملتهم. لذلك، جاء ردهم بالتكذيب والإنكار، مصحوباً بالاستهزاء. : "قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعظت أم لم تكن من الواعظين * إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأُولِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ" (سورة الشعراء: الآيات [١٣٦، ١٣٧، ١٣٨]). ففي قولهم: "أَوَعظت أم لم تكن من الواعظين" هذا يدل على أنهم عجزوا عن دحض دعوى نبيهم هود، وأن الحجة قد أُقيمت عليهم ولكنهم جحدوا الحق، فوقعوا في مصير الأمم السابقة.

إذن، تركزت الأفعال اللغوية في هذه الآيات حول فعلين رئيسيين هما "اتقوا" و"أطيعوا"، وهما من أفعال الأحكام حسب تصنيف أوستين. ورغم مقام النبي الرفيع، إلا أن أوامره لم تُنفذ بنجاح، فكانت أفعال كلامية غير مثمرة، حيث لم يحقق المتلقون مضمون هذه الأفعال.

ومع ذلك، كانت البنية الحجاجية ككل ناجحة، والدليل على ذلك عدم قدرة الخصوم على إبطال الحجة، مما يعني إفحامهم. ورغم أنهم رفضوا الاعتراف بذلك عنادًا وكبرًا، فإن هذا يعتبر مذمومًا في فن المحاجة.

لكن، يظهر التباين الإبستيمي في التعامل مع الخطابات بين اللسانيات والتداولية، والذي تمثل في الفصل بين دلالة الكلام وقيمتها التداولية. هذا الفصل أثر سلبيًا على فعالية الدراسات اللغوية، مما دفع علماء اللغة إلى البحث عن الروابط التي يمكن أن تجمع بين هذين المستويين في الدراسة اللغوية الحديثة، وبالتالي استدعى هذا الأمر التداخل بين اللسانيات والتداولية في إطار جديد يُسمى "حقل التداولية المدمجة".

الحجاج والمناظرة:

المناظرة في جوهرها نوع من الخطاب الشفاهي، لكن العديد من المناظرات الشفاهية في التراث العربي قد أُعيدت صياغتها، سواء كانت قد حدثت بالفعل أو كانت من اختراع أصحابها. ومع ذلك، حافظت هذه المناظرات على خصائصها الشفاهية التي تميزها عن المناظرات التي ترتبط بمقام كتابي. من بين السمات الأساسية التي تميز المناظرة الشفاهية، مثلاً، وجود المتحاورين الفعلي في نفس اللحظة، وعدم التحضير المسبق للمناقشة. (مشبال، ٢٠١٥: ٢٠). رغم اختلاف المناظرة بين المقامين، إلا أن هناك مكونًا أساسيًا ثابتًا لا يمكن لأي مناظرة الاستغناء عنه، كما يوضحه أحد الباحثين بقوله: "إن تبادل السؤال والجواب، أو الاعتراض والدعوى، والتعقيب على كلام الخصم بنفيه ودحض حججه واحدة تلو الأخرى، هو الأسلوب الذي يميز فن المناظرة ويشكل السمة الغالبة على الحوار فيها." (إن الأمر لا يتعلق هنا بـ "سمة أسلوبية" كما اصطلح عليها الباحث، بل بـ "سمة خطابية نوعية"؛ فهو لم يكن في الحقيقة بصدد الحديث عن الخصوصية الأسلوبية - بالمعنى الدقيق لمصطلح الأسلوب - لجنس المناظرة، بقدر ما كان يتحدث عن مكوناته النوعية، مشبال، ٢٠١٥: ٢٠) يمكن تمييز المناظرة عن غيرها من فنون النثر العربي القديم بشكل عام، وفنون الحوار على وجه الخصوص. (العيادي، ٢٠١٣: ٨٢، ٨٣).

يبدو أن هذا التحديد لا يخلو من بعض الغموض الذي يحتاج إلى توضيح. ففي "تبادل السؤال والجواب أو الاعتراض والدعوى" بين طرفين متناظرين، يختلف السياق بين المقام الشفاهي والمقام الكتابي. ففي المقام الأول، يتطور الحوار بين الطرفين بشكل تدريجي ومتصاعد، حيث يُمنح كل طرف فرصة الرد والاعتراض، ويتبادل الطرفان الحديث طوال المناظرة. أما في المقام الكتابي، فيتم استدعاء طرف لعرض دعوى خصمه وحججه، ليقوم بعد ذلك بالتعقيب عليها ونقضها حجةً حجةً، مما يعني غياب فرص الرد للخصم في هذه الحالة.

ورغم هذا الاختلاف في أسلوب الحوار بين المقامين، فإن المناظرة تظل متميزة عن الأنواع الخطابية الأخرى بتبادل السؤال والجواب، أو بتقديم الحجج بشكل حوار متبادل. وهذا النمط الكتابي هو ما تنتمي إليه الأشعار.

وفقاً لـ "طه عبد الرحمن"، تعتبر "المناظرة" هي البنية المعرفية الخاصة بـ "المحاورة"، حيث تُعد المحاورة مرتبة ثانية من مراتب "الحوارية". وتعتمد آلياتها الخطابية على "الاعتراض"، وهو ما يجعل الحجاج مناهج استدلالية، حيث يوفر هذا المنهج تناظراً بين النماذج النظرية والشواهد النصية. ويقابل نموذج الإبلاغ النظري المحاورة القريبة (المناظرة) كشاهد نصي، بينما يقابل نموذج القصد النظري المحاورة البعيدة (التناص) كشاهد نصي أيضاً.

ويُعد هذان الشاهدان النصيان المجال الأساسي للتطبيق في هذا النوع من الخطابات. وهما الخاصيتان الرئيسيتان للخطاب الحجاجي الشعري، وهو ما تجلى في المفارقة والمناظرة التي قدمت حقائق ومعلومات مهمة قد يصعب إيجادها في كتب التاريخ. إذ رسمت المناظرة صورة حربية لعدد من الأحداث البارزة، مثل معركة الحدث سنة ٣٤٣هـ، واللقان، ومرعش

(الكبيسي، ١٩٨٩: ٤٩). كما أبرزت المناظرة الطبقة القيادية البيزنطية من خلال استدعاء أسماء الشخصيات البيزنطية، وهو ما يُعد إنجازاً للشاعر من حيث تأريخه لتلك الشخصيات. كما أن الحجج المستندة إلى أمثلة تاريخية كانت تتمتع بشرعيتها وقيمتها، حيث ارتبطت بتاريخ مليء بالبطولات والانتصارات على الأعداء.

وفي مناظرة دينية أخرى، يعبر أبو فراس عن مشاعره وأحاسيسه أثناء أسره لدى الروم، حيث يفيض بالحزن والألم على حاله. وفي هذه المناظرة، يخاطب "الدمستق" في حوار دار بينهما. (الدويهي، ١٩٩٤: ٣١٧):

يَعِزُّ عَلَى الْأَحِبَّةِ بِ"الشَّامِ" حَبِيبٌ، بَاتَ مَمْنُوعَ الْمَنَامِ

افتتح الشاعر أبياته بالحديث عن أهله وأحبائه في بلاد الشام، أولئك الذين يشاركونه حزنه، ويشعرون بألمه كما يشعر به، فهم من يتألمون لمصيره، ويعانون من آلامه، إذ لا ينام وهو أسير.

وقوله (الدويهي، ١٩٩٤: ٣١٧):

وَإِنِّي لِلصُّبُورِ عَلَى الرَّزَايَا، وَلَكِنَّ الْكِلَامَ عَلَى الْكِلَامِ

جُرُوحٌ لَا يَزَلْنَ يَرِدُنْ مِنِّي عَلَى جُرْحِ قَرِيبِ الْعَهْدِ، دَامَ

طوال الوقت كان الشاعر يكتفم غيظه متسلحاً بالصبر أمام المصائب، إلا أن جرحه كان يزداد عمقاً وألمًا، بسبب الآثار الدامية التي خلفتها تلك المحن، والتي أصبح لا يقدر على تحملها بعد الآن.

وقوله (الدويهي، ١٩٩٤: ٣١٨):

تَأْمَلْنِي "الدُّمُسْتَقُ" إِذْ رَأَيْتِي، فَأَبْصَرَ صَيْغَةَ اللَّيْثِ، الْهُمَامِ

يصف الشاعر كيف كانت نظرة "الدمستق" إليه، مليئة بالاستنكار والتعجب، كما لو كان يحاول التقليل من شأنه. وربما كانت هذه النظرة هي الشرارة التي أشعلت فتيل المناظرة. ورغم هذا الاستصغار، لم يجد "الدمستق" إلا أن يرى في أبي فراس شجاعة وكرماً لا يتراجع أبداً، بل يظل مرفوع الرأس.

وقوله (الدويهي، ١٩٩٤: ٣١٨):

أَتُكْرِمُنِي كَأَنَّكَ لَسْتَ تُدْرِي بِأَبِي ذَلِكَ الْبَطْلُ، الْمُخَامِي

وقوله (الدويهي، ١٩٩٤: ٢٥٧):

وَأَبِي إِذْ نَزَلْتُ عَلَى "دُلُوكِ" تَرَكْتُكَ غَيْرَ مُتَّصِلِ النَّظَامِ

يتساءل الشاعر باندهاش عن سبب تجاهله، مُستغرباً كيف يُنكر بطولته وشجاعته، فهو لا يرضى بالضيم أبداً. ويؤكد الشاعر أنه إذا حلَّ في "بدلوك" - وهي إحدى العواصم الكبرى - فإنه سيجعل عدوه مفكك القوى، عاجزاً عن التنظيم أو التصدي. التفاصيل التي يذكرها الشاعر هنا تُضفي على الصورة وضوحاً في الذهن، وتساعد في تجسيد حالته في مواجهة خصمه في لحظة الهزيمة.

وقوله (الدويهي، ١٩٩٤: ٣١٨):

وَلَمَّا أَنْ عَقَدْتُ صَلِيبَ رَبِّي تَحَلَّلَ عَقْدُ رَبِّكَ فِي الْمَقَامِ
وَكُنْتُ تَرَى الْأَنَاءَ، وَتَدَّعِيهَا فَأَعَجَلَكَ الطَّعَانُ عَنِ الْكَلَامِ
وَبِتَّ مُورَقًا، مِنْ غَيْرِ سُهْدٍ، حَمَى جَفْنَيْكَ طِيبَ النَّوْمِ حَامٍ
وَلَا أَرْضَى الْفَنَى مَا نَمُ يُكْمَلُ، بَرَّأِي الْكَهْلُ، إِفْدَامِ الْعُلَامِ

تُظهر المقطوعة تأكيد قدرة أبي فراس على المناظرة والجدال، وهي الميزة التي تميز بها في مناظراته السابقة. فهو يمتلك فصاحة وبلاغة عالية، وقوة منطقية تقطع حجة خصمه وتفحمه، فضلاً عن كونه فارساً لا يُضاهى. هذه الصفات جعلت العدو يواجه صعوبة في النوم بسبب ظهور أبي فراس بالحجة القوية والبرهان الساطع، الذي لا يترك مجالاً للشك أو الجدل..

وقول (الدويهي، ١٩٩٤: ٣١٨):

فَلَا هُنْتُهَا نَعْمَى بِأَسْرِي وَلَا وُصِلْتُ سَعُودَكَ بِالنَّمَامِ

أي؛ لا اهتنت: بأسري ولا لمت مرامك الذي تريده مني.

وقوله (الدويهي، ١٩٩٤: ٣١٨):

أَمَا مِنْ أَعْجَبِ الْأَشْيَاءِ عِلْجٌ، يُعْرِفُنِي الْحَلَالَ مِنَ الْحَرَامِ
وَتَكْنُفُهُ بِطَارِقَةِ ثِيُوسٍ، تُبَارِي بِالْعَثَانِينَ الصِّخَامِ
لَهُمْ خَلْقُ الْحَمِيرِ فَلَسْتُ تَلْقَى فَتَى مِنْهُمْ يَسِيرُ بِلَا حِرَامِ
يُرِيغُونَ الْغُيُوبَ، وَأَعْجَزْتُهُمْ وَأَيُّ الْغَيْبِ يُوجَدُ فِي الْحَسَامِ

يتساءل الشاعر عن سبب قيام "الدمستق" بالجدال وهو كافر، ليكشف عن استهزائه واستهزائه بحالة خصمه. يتعمق هذا الاستهزاء من خلال تصويره لهم بكلمات مثل "العثانين"، وكأنهم هم الذين يخوضون المعارك ويواجهون الصعاب بسبب حجمهم الضخم وطولهم، في إشارة ساخرة إلى قوتهم الظاهرية. كما يتعجب من تصرفهم بارتداء الحزام الذي لا يراه العرب إلا على الدواب، مما يعكس ازدراءه لهم. ورغم بحثهم المتواصل عن العيوب والنقص، لا يلبث أن يشبه نفسه بالحسام، موضعاً أنه يمتلك من القوة والشجاعة ما يشترك به مع أبي فراس، في إشارة إلى سطوته وصلابته. (الدويهي، ١٩٩٤: ٣١٨)

وَأَصْعَبُ خُطَّةٍ، وَأَجَلُ أَمْرٍ مَجَالَسَةُ اللَّئَامِ عَلَى الْكِرَامِ
أَبِيْتُ، مُبْرَأً، مِنْ كُلِّ عَيْبٍ، وَأُصْبِحُ، سَالِمًا مِنْ كُلِّ دَامِ

يعترف الشاعر بأن أصعب المواقف وأعظمها تتمثل في تداخل عالم الروم مع عالم العرب، لا سيما عندما يتعلق الأمر بشخص مثل أبي فراس الذي وقع أسيراً في أيديهم. يتوجه الشاعر في خطابه إلى الجميع، مشيراً إلى أن لا أحد يمكنه أن يشبه الشجاعة والمقام الرفيع لأبي فراس، الذي يثبت جدارته حتى بين البشر والجن. فهو ليس بحاجة إلى المدح أو الثناء، بل يختلف عن أولئك الذين ضحوا بحياتهم طلباً للإعجاب مثل ابن مام وبجير.

ثم ينتقل الشاعر ليعبر عن تأملاته في مصير البشر، فكل واحد سيواجه مصيره عاجلاً أو آجلاً. ورغم طول الحياة، فإن الأجل آتٍ لا محالة، لكنه، طالما كان حياً، سيظل يرفع نظره إلى السماء ويتأمل في بريق البرق، مُرسلاً السلام إلى أحبائه. في المقطع الأخير، تتزاحم الحكمة، وكأن الشاعر يلخص تجاربه في الحياة، محاولاً أن يوجه هذه النصائح إلى الروم، عليهم يستفيدون منها ويعلمون أن الموت والحياة هما أمران لا يمكن الجدال فيهما.

تعد المناظرة السابقة مناظرة دينية بحتة، حيث تم التوازن بين الحق والباطل وبين الكبرياء والتواضع. وتميز النص بالصدق العميق بين طياته، في حين أن موسيقى المناظرة هنا كانت هادئة، مما يعكس هدوء النفس والتركيز الروحي الذي يميز

المناظرة الدينية. كما تختلف هذه المناظرة عن سابقتها التي اتسمت بتسارع الموسيقى وعلوها في الألفاظ والجمل، إذ كانت هذه المرة أكثر رقة ونعومة، مما يعكس الحضور العاطفي والروحي في الحوار.

تتميز القافية (الميم) هنا بتقديم صوت العقل على العاطفة، وتتناغم مع بداية رقيقة تؤدي إلى التذكير بالأحبة والأصحاب قبل الدخول في جو المناظرة. كما تحتوي المناظرة على العديد من الصور البلاغية والتشبيهات مثل "فأبصر صيغة الليث" و"عقد رأيك"، إضافة إلى الكنايات التي تشير إلى الحكمة والشجاعة، مثل "رأي الكهل" و"مقدام الكلام". من خلال هذه الصور والرموز، يعبر الشاعر عن معاني دينية بحتة، باستخدام مفردات مثل "الحرام"، "البطارقة"، "يريفون"، "موارد الموت"، و"بنو الدنيا"، مما يعكس الارتباط العميق بالقيم الدينية التي شكلت بناء المناظرة.

تسعى المناظرة إلى تقديم صورة واضحة ومفهومة للحقائق الدينية الأساسية، مثل الحلال والحرام، والموت والحياة، وهي الأسس التي استند إليها الشاعر في بناء حجاجه. فالشاعر بدأ تدريجياً في إثبات الدين الخالص والمستند إلى اليقين، بدءاً من سؤال "أتتكرني كأنك لست تدري" وصولاً إلى الحقيقة المطلقة التي تمثلها قناعته بأن "بنو الدنيا إذا ماتوا سواء"، وهي تأكيد على مبدأ الموت والفناء والثواب والعقاب.

في النهاية، يتجنب الشاعر الإسهاب أو التكرار، ويتحلى بالاعتدال في اختيار ألفاظه، ملتزماً بأدبيات الحوار والجدل، مما يجعل من هذه المناظرة مثلاً رائعاً على الحوار العقلاني الذي لا يخلو من عمق فكري وحكمة. لقد أغنى الشاعر مناظرته بكثير من الحكم الدينية التي تدعم ويقوي موقفه، مُختتماً إياها بأسلوب رشيق يعكس خلاصة ما مر به في حياته. وفي ضوء ما سبق، يظهر أن فن المناظرات هو فن عميق ومتجذر في الفكر العلمي، الفلسفي، والديني، حتى وإن كان الأدب قد قصر في دراسته مقارنة بمنهجيات المنطق والفلسفة..

النتائج:

- يهدف التحليل التداولي للقرآن إلى فهم مقاصد الخطاب الإلهي وأبعاده التوجيهية. ككشف الأبعاد الإنجازية للخطاب: يوضح أن الآيات ليست مجرد معلومات، بل هي أفعال كلامية (Speech Acts). فآيات الأمر والنهي، مثل قوله تعالى: "أَقِيمُوا الصَّلَاةَ"، هي أفعال تُنشئ التزاماً وتُحدث فعلاً في الواقع.
- فهم علاقة النص بالسياق: يبين أن فهم الآيات يتطلب معرفة السياق الذي نزلت فيه (أسباب النزول، والمخاطبون)، لأن هذا السياق يحدد القصد الحقيقي للآية. فآيات الجهاد في زمن الحرب تختلف دلالتها عن آيات السلم.
- إدراك وظيفة الخطاب القرآني: يسلط الضوء على أن القرآن خطاب إقناعي وهدائي، يهدف إلى تغيير سلوك المتلقي وتصحيح معتقداته. فالتحليل التداولي يساعد على استخلاص المنهج القرآني في الإقناع.
- ويُظهر التحليل التداولي أن شعر أبي فراس ليس مجرد وصف للعواطف، بل هو أداة للتأثير وتحقيق غايات معينة. كتحديد القصد من وراء العاطفة: يكشف أن عاطفة الشكوى أو الحزن في قصائده الأسرية، مثل قصيدته المشهورة: "أراك عصي الدمع"، ليست مجرد تعبير عن الألم، بل هي فعل كلامي يُقصد به استعطاف سيف الدولة الحمداني وتحفيزه على فك أسرهِ.
- فهم الوظيفة الإنجازية للمدح والفخر: يبين أن أبيات الفخر والمدح لا تقتصر على إظهار العزة، بل هي أفعال كلامية تهدف إلى إعادة الاعتبار للذات في وجه الأعداء والواشين، وتأكيد المكانة الاجتماعية والسياسية للشاعر.

- تفسير الخطاب في سياقه الدرامي: يساعد التحليل التداولي على فهم شعر أبي فراس في سياقه التاريخي والشخصي، مما يوضح أن كل كلمة كان لها قصد معين موجه إلى شخص محدد أو جمهور معين، سواء كان سيف الدولة، أو أهله، أو أعداءه.
- تسعى المناظرة إلى تقديم صورة واضحة ومفهومة للحقائق الدينية الأساسية، مثل الحلال والحرام، والموت والحياة، وهي الأسس التي استند إليها الشاعر في بناء حججه.
- تُظهر بعض المقطوعات الشعرية تأكيد قدرة أبي فراس على المناظرة والجدال، وهي الميزة التي تميز بها في مناظراته السابقة. فهو يمتلك فصاحة وبلاغة عالية، وقوة منطقية تقطع حجة خصمه وتحمه.
- وتُعد هذه الشواهد النصية المجال الأساسي للتطبيق في هذا النوع من الخطابات. وهي الخاصيتان الرئيسيتان للخطاب الججائي الشعري، وهو ما تجلى في المفاخرة والمناظرة التي قدمت حقائق ومعلومات مهمة قد يصعب إيجادها في كتب التاريخ.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

١. ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون: ت: درويش جويدي، المكتبة العصرية، طبعة جديدة ومنقحة، بيروت، لبنان.
٢. ابن قتيبة الكوفي الدينوري، أدب الكاتب، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ط٤. مصر: ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م مطبعة السعادة.
٣. ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، ط١، بيروت، لبنان، ١٩٩٧ م.
٤. أبو الفتح عثمان ابن جني، اللع في العربية، تح: حامد المؤمن، د ط. بغداد: د ت، مطبعة العاني.
٥. أحمد ابن زكريا ابن فارس، الصحابي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تح: محمد الشويمى، د ط. بيروت: ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م، مؤسسة بدران للطباعة والنشر .
٦. أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠١١.
٧. أرمينكو فرانسواز، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، ط١. الرباط: ١٩٨٦ م، مركز الإنماء القومي.
٨. باشا العبادي : فن المناظرة في الأدب العربي، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ٢٠١٣ م.
٩. جلال الدين السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ط١. مصر: ١٩٧٩ م، المطبعة الأزهرية، ج١.
١٠. حمدان الكبيسي: القائد سيف الدولة الحمداني، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١، السعودية، ١٩٨٩ م.
١١. خليل الدويهي: ديوان أبي فراس الحمداني، دار الكتاب العربي ط ٢، بيروت لبنان ١٩٩٤ م.
١٢. الرازي فخر الدين الرازي: المناظرات، مؤسسة عزالدين للنشر، ط١، ١٩٩٢.
١٣. الرويلي ميجان، والبازي سعد، دليل الناقد الأدبي، ط٣. الدار البيضاء: ٢٠٠٢ م، المركز الثقافي العربي.
١٤. صليبا جميل : المعجم الفلسفي ، ج٢، مؤسسة هنداوي، القاهرة.
١٥. طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط٢. الدار البيضاء: ٢٠٠٠ م، المركز الثقافي العربي.
١٦. عبد الله صولة: الحجاج في القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠١٢.
١٧. عمار العويجي ، التحليل التداولي للخطاب الشعري روميا تايي فراس الحمداني انموذجا، جامعة محمد ابو ضياف، ٢٠١٦.
١٨. عيسى، رانيا فوزي سعد محمد (د/ت). أساليب الاستقهام في شعر أبي فراس الحمداني، كلية الآداب - جامعة الإسكندرية.
١٩. فان دايك، علم النص، مدخل متداخل الاختصاصات، تر: سعيد حسين بحيري، ط١. مصر: ٢٠٠١ م، دار القاهرة للكتاب.
٢٠. الفيروز آبادي: القاموس المحيط، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت لبنان ١٩٩٤ م.
٢١. القرطاجني حازم: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، ط٣، بيروت، لبنان، ١٩٨٦ م.
٢٢. ماهر عبد القادر محمد: محاضرات في المنطق، دار المعرفة الجامعية، ج١.
٢٣. محمد أبو زهرة: تاريخ الجدل، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥.
٢٤. محمد التومي: الجدل في القرآن الكريم، فعاليته في بناء العقلية الإسلامية، شركة الشهاب، الجزائر.
٢٥. محمد عبد الباسط عيد: في حجاج النص الشعري، افريقيا الشرق، ط١، المغرب، ٢٠١٣ م.
٢٦. محمد مشبال: خطاب الخلاق والهوية في رسائل الجاحظ"مقاربة بلاغية حجاجية"، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ط١، عمان، الأردن، ٢٠١٥ م.
٢٧. محمود فجال، الحديث النبوي في النحو العربي، ط٢. الرياض: ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، أضواء السلف.
٢٨. مقالة بعنوان "الروم في شعر أبي فراس أسماء بعض الشخصيات البيزنطية في قضية الشاعر الفري أبو فراس (ق ١٠ م) ل"دونتس وم. كانار تر: وليد الخشاب (كاتب من مصر) في الموقع الإلكتروني: www.nizwa.com
٢٩. مقبول إدريس، "التداولية عند سيوييه"، مجلة عالم الفكر، ٢٠٠٤ م، ع٣.
٣٠. ناغش عيدة، اسلوب الاستقهام في الاحاديث النبوية، الجزائر، كلية الاداب، ٢٠١٢.
٣١. هاجر مدقن: الخطاب الحجاجي أنواعه وخصائصه، مؤسسة توبقال، الدار البيضاء، ٢٠٠٧.